اللواء الدكتور ياسين سويد في كتابه «مرايا الأحوال»:
لبنان الطائفي على حاله والبلدان العربية من سيّئ إلى أسوأ
جريدة اللواء، الجمعة,11 كانون الثاني 2013 الموافق 29 صفر 1434 هـ

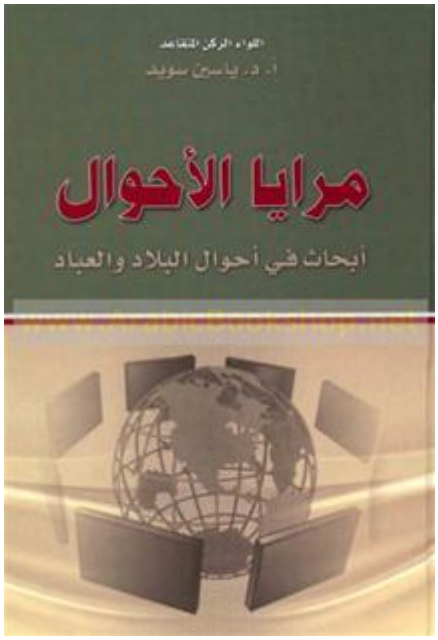

غلاف الكتاب

د. عبد الرؤوف سنّو

يستهل اللواء الركن الدكتور ياسين سويد مقدمة كتابه «مرايا الأحوال – أبحاث في أحوال البلاد والعباد» بالقول: «كانت الرحلة طويلةً وشاقة، إلا أنها كانت، حقاً، ممتعة، ومثمرة، ومثقَلة بأطيب الثمار وأحلاها». إنها بالفعل رحلة طويلة مفعمة بالنشاط والحيوية، وباتساع دائرة أصدقائه ومحبيه. وهي، أي الرحلة، عن حق، ممتعة ومثمرة، ذلك أن اللواء الدكتور أنتج أكثر من خمسين مؤلفاً وموسوعة، وآخرها موسوعة: «من تاريخنا معاركُ وقادة». وزوّد المكتبة العربية بمئات المقالات والأبحاث المتنوعة الاتجاهات، اللبنانية والعربية والعسكرية والإستراتيجية وخلافها. فعندما يحب المؤرّخ مهنته ويعشقها، لا بد من أن تغمره متعة التأليف، ليس من أجل الذات، بل من أجل مجتمعه الصغير ومجتمعه الكبير، وتحديداً من أجل الإنسانية ومسارها الحضاري. ويسارع سويد إلى تنبيه قارئه إلى أن المقصود برحلة العمر، كما ورد في مقدمة الكتاب، ليس العمر بحد ذاته، وإنما «رحلة العلم»: عشرون عاماً على طاولة الدراسة، وأربعون عاماً في السلك العسكري، وعشرون عاماً بعد التقاعد، الذي يقاومه ويرفض أن يخضع له، عبر الكتابة والتأليف.

وعندما يقرأُ المرء نتاج العلمي الرصين، لا بد أن يشاركه في حلاوة ما قدّمه إلى العلم والبشرية. ولا تخلو هذه الحلاوة، في بعض الأحيان، من قساوة في النقد، وهو بنّاء بالتأكيد، لأن

سويد ما كتب يوماً إلا من أجل تصحيح المسار والمسيرة، وربما بحسرة ومرارة، عندما يدرس الماضي البعيد ليطل منه على الماضي القريب ومنهما على الحاضر، فيكشف أن الماضي البعيد اختزنَ كل أمجاد العرب وفكرهم الأصيل وتأثيرهِم الحضاري، فيما تجلى ماضيهم القريب بالكفاح ضد الاستعمار، والعروبة ومقاومة إسرائيل في أجمل صوره. أما الحاضر الحزين، فيختصره سويد بأربع كلمات من عنوان مقال، هو: «إعلان موت الأنظمة العربية»، فيصرخ «وامعتصماه». فهل تبقى صرخته في وادٍ في زمن الربيع العربي؟

مرايا الأحوال مؤلف يعكسُ أحوال لبنان والبلدان العربية والتي عاشها المؤلف وعايشها بكل دقائقها وتفاصيلها، وربما شارك في صنع بعضها. فهو مراقب معاصر، ومؤرّخ، وعسكري، وإستراتيجي، يستفيد من حقول المعرفة تلك، ليدلي بدلوِه، ويستنتج مما يقرأُه ويراه ويسمعه. وفي الكتاب ستة أبواب مصنفةٍ وفق الموضوع: لبنانية وقومية وعسكرية وتاريخية وإستراتيجية وأخيراً أبحاث متنوعة.

في باب «أبحاث لبنانية»، نتعرّف إلى سويد خصماً عنيداً ثابتاً ضد الطائفية السياسية، التي يعتبرها السبب في خراب التعايش في لبنان، ويتوقع أن تدمره إذا بقي الحال على حاله. هو يمقت الطائفية، نظاماً سياسياً ومجتمعياً، عن تجربة ومعاناة، فيهاجمها بعبارات لاذعة، إذ أنها أدت، برأيه، إلى فدرالية طائفية مقنعة ومدمرة، وأعاقت قيام الدولةِ اللبنانية. وهو يقترح ويؤيد حكماً علمانياً أو أي حكم بعيد عن الطائفية يقوم على نظام الأكثرية والديمقراطية التمثيلية. من هنا، يعتبر سويد نفسه ينتمي إلى «الطائفة التاسعة عشرة» في لبنان، أي طائفة اللامنتمين إلى طائفة. ولهذا السبب، أسسَ في العام 2007 «حركة اللاطائفيين» التي يرى أنها لم تجد لها مكاناً وظيفياً وتمثيلياً في لبنان الطائفي. أما ما يدعيه اللبنانيون من فرادة ديمقراطيتهم التوافقية التي أصبحت نصاً في دستور الطائف، فيرفضها سويد، ويعتبر أنها، مع الثلث الضامن، عطلتا الحياة السياسية في لبنان وأسستا لديكتاتورية الأقلية (المعارضة في حينه). لكن اللواء سويد يسارع إلى التحذير من أن ديمقراطية الأكثرية، وما قد تحمله معها من اصطفاف فئوي أو طائفي أو مذهبي، تتطلب التوعية والتربية والتوجيه اللاطائفي. ويعترف أن الثقافة الوطنية والتربية على المواطنة لم تتحققا في لبنان، مما يعني أن الدخول إلى نظامِ حكم الأكثرية غير متوافر في الوقت الراهن.

وليس خروج لبنان من الطائفية هو الهاجس الوحيد عند سويد، بل القضاء على المذهبية المتفشية، وتحديداً بين السنّة والشيعة. ففي مقاله «قمرٌ سنّي وقمر شيعي يتبعهما عيد سنّي وعيد شيعي»، ينتقد سويد بمرارة التباعدَ غير المبررِ بين الطائفتين اللتين لا يجمعهما عيد الفطر. وفي خطوة جريئة، يطالب بإلغاء المجلسين الشرعي، والإسلامي الأعلى، واعتماد مجلسٍ إسلامي موحد، منطلقاً في ذلك من اعتبارات دينية، بأن لا فروق جذرية في العقيدة أو في الفقه تمنع هذه الوحدة.

وفي منحى لافتٍ، يدل على إيمانه بالوطن وبالانفتاح على شريكه فيه، ورفض إذلاله، يتحدث اللواء سويد عن المسيحيين. فهم ملح الأرضِ العربية، كما يصفهم، الذين سكنوها قبل المسلمين

وعمروها. فيستنكر ما تعرضوا له في العراق بعد الاحتلال الأميركي، من تهجير واقتلاع من الأرض وأعمال قتل، ويقول: «ليعلم العرب جميعاً، شعوباً وقادة، أن المسيحيين هم أهل هذه الأرضِ من قبلِ بقرون، وأنهم يشكلون قناديل نور لامتنا. فيحذر من التفريط بهم، ويخاطب المسلمين بالقول: «شدوا على وجودهم بشغاف قلوبكم، وبكل ما تحملون من حب لأمتكم على اختلاف كياناتكِم ومذاهبكم. أنهم ملح أرضنا العربية، فإذا ذهب الملح ستصبح حياة العرب علقماً (170).

كمواطن عربي ومؤرّخ وكعسكري أيضاً، يعلن اللواء الدكتور سويد صراحة أنه مع المقاومة ضد إسرائيل. لكنه يرفض اعتبارَ سلاحها المقاوم، وأي سلاح مقاومة آخرَ، مقدساً، فالقداسة، برأيه، هي للفعل الذي يقوم به المرء وليس للسلاح. وهو مع التمسك بالمقاومة، لكنه ضد دمجها في الجيش اللبناني، لأن الجيش سيخسُ عندئذ ميزتها في حرب العصابات. فيرحب بالتنسيق بينهما تحت سقف الدولة التي تضع إستراتيجية دفاعية عامة. وبعد أيار 2008، حافظ سويد على مواقفه من المقاومة، لكنه انتقد استخدام سلاحِها في بيروت والمناطق اللبنانية. فوجّه نصيحته إلى السيد حسن نصر الله بأن تتحوّل المقاومة، «... في الشكل والمضمون، من مقاومة فئوية أو مذهبية أو دينية إلى مقاومة وطنية وبإشراف الدولة» (122).

وعلى الصعيد القومي، وقف سويد ضد الصهيونية كعقيدة وممارسة، وضد إسرائيل كدولة تغتصب حقوق الفلسطينيين. ويعتقد أنه مهما حاول العدو الإسرائيلي التطبيع مع الدول العربية، فسيظل غريباً منبوذاً في أرض العرب، ذلك أن شدة كراهيته للمشروع الصهيوني في فلسطين، يوازيها نقمته على الدول العربية وسياساتها المتخاذلة تجاه الحق العربي والارتماء في الحضن الأميركي الذي يدعم إسرائيل. وينتقد الغرب والعرب معاً، لتغاضي الغرب عن صهينة فلسطين واتهام العرب بالسامية لمعارضتهم الاحتلالِ الإسرائيلي في فلسطين، ولقبول العرب بتهمة السامية كسلاح فتاك يُستخدم ضدهم. فيدعو إلى مقاطعة إسرائيل ومقاومة التطبيع على الصعيدين الرسمي والشعبي. ويعتبر أن وقوف الأنظمة العربية صامتة خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان في صيف 2006 وعدم الاجتماع، ولو على مستوى الملوك والرؤساء، إيذاناً بـ «موت الأنظمة العربية».

ويلاحظ القارئ للكتابِ، أن اللواء سويد يتمسك بتاريخه المجيد وبالحق الإنساني في أن يعيش المرء بحرية وكرامة، فهو يرفض وصف مقاومة احتلال إسرائيل لفلسطين ولبنان، ومقاومةِ احتلال الولايات المتحدة للعراق بالإرهاب، بل هي مقاومة شريفة للرد على إرهاب أميركا وإسرائيل. كما أنه لا يفرّق بين إرهاب إسرائيل لغزة ولبنان، وبين إرهاب أميركا للعراق وأفغانستان، بل يعتبر الدولتين، أميركا وإسرائيل، في خندق واحد، وهو التآمر على الشعوب والقضاء على أمانيها وطموحاتها في العيش بسلام. ويحذر العرب من النازيين الجدد في واشنطن ومن النازي الصهيوني شارون في القدس المحتلة. فبوش وشارون سفاحان شريكان في جرائمَ ضد الشعبين العراقي والفلسطيني.

وبحدة وبجرأِته المعهودة، لا يفرّق سويد بين نظام عربي ونظام عربي آخر في تحميلهما

مسؤولية التخاذل أمام ما يحصل اليوم بالأمة العربية. فعندما وصلته أنباء المجازر الإسرائيلية بحق الفلسطينيين في غزة بين نهاية العام 2008 ومطلع العام 2009، وهو ما ينطبق على حال غزة قبل أسابيع قليلة مضت، حتى انفجر بركان متجمر في داخله، فصب جام غضبه على كل ما هو عربي، وكأنه خلع ثوبه العروبي وخرج من ذاته. فكتب: «ما أن أدركتني أنباء المجازر الصهيونية في قطاع غزة، حتى انتابتني قشعريرة قرف من بشرتي العربية السمراء، بل من أصوليَ العربية، وموجة شعور بالخجل من تاريخنا العربي المجيد، الزاخرِ بالبطولات والأمجاد. أين كنا وأين نحن اليوم... وتذكرت أن في هذا العالم العربي الواسع، ملوكاً ورؤساَ وأمراء وزعماء... اثنا وعشرون ملكاً ورئيساً وأميرا يحكمون أربعماية مليون من البشر، لا يوجد بينهم معتصمٌ واحد».

لقد قدّم لنا اللواء الصديق ياسين سويد وصفاً محزناً وقاتماً لمحنة الوطن العربي، فعدد محاورَها بالآتي:
- غياب الديمقراطية والحريات وتداول السلطة، وتحوّل الرئاسات إلى مَلَكيات ومِلكيات، فيما الشعب العربي سجين حكامه في سجون من الظلم والظلام والتخلف والعوز والفاقة.

- تحوّل الجيوشِ العربية إلى حراس لحدود إسرائيل.
- فلسطين تعاني قسوةَ الاحتلال الإسرائيلي.
- العراق محتل من الأميركي.
- سورية محاصرة ومعزولة.
- باقي العرب منشغلون بهمومهم وقضاياهم ومشكلاتهم الداخلية.

إزاء هذا الواقعِ العربي الأليمْ، الذي يشعل في داخله نيران متوقدة، يقذف سويد حممه بعبارات حارقة باتجاه كل الأنظمة العربية وشعوبها التي يعتبرها ميتة، فيقول: «تدمرنا آلة الحرب الأميركية، في كل من العراق وفلسطين، ولا نصرخ. يُذبح أطفالنا وشيوخنا ونساؤنا، ويُقتل جرحانا، ولا نغضب». ويستاءل: متى يغضب العرب؟ (314) وبحسرة، يسأل سويد، بعد إحالة المحكمة الجنائية الدولية الرئيس عمر البشير إلى قفص الاتهام: «من سيحاكم جورج دبيليو بوش؟» على قتله أكثرَ من مليون عراقي بين العامين 2003 و2007. فيتفجر ألمه أنهاراً من أبيات شعر صاخبة ضاجة، فيقول:

عربٌ أنتم
لا أستثني أحداً منكم
أحفاد علي
وصلاح الدين وحطين
فمآسينا وهزائمنا ومخازينا
جعلتنا أحقر من ديدان في طين
لا شيء يهز ضمائركم
لا شيء يحرك نخوتَكم

مئتا مليون؟
لو كنتم مئتي مليون بعوضةْ
أو أفعى، أو عقربْ
أو كلبٍ مسعورْ
كنتم أفضل، بل أشرفَ
مما أنتم في الظاهر والمستورْ
الشعب المقهور يناديكم
وفلسطين الثكلى تستنجدكم
لكن، لا معتصماً فيكم
لا خالد، لا طارق
لا بعض صلاح الدين

هذا هو اللواء ياسين سويد، فارس يمتطي صهوة جواده ويحارب ببندقيته وبقلمه وفكره منذ ستين سنة، ومن لا يعرفه، عليه أن يقرأ مرايا الأحوال، ليرى كيف أن اللبنانيينَ باقون على حالهم الطائفي، وأحوال العرب تتبدل من سيئ إلى أسوأ. فهل يأتي الربيع العربي بالربيع الذي ينشده ياسين سويد؟